الفصل السابع والثلاثون

تشريح الثورة

١٧٧٤ — ٨٩

لقد فحصنا فكر فرنسا عشية الثورة — فحصنا فلسفتها ، ودينها ، وأخلاقها ، وسلوكها ، وأدبها ، وفنها . ولكن هذه كانت أزهاراً هشة نبتت من أرض اقتصادية ، ولا قدرة لنا على فهمها إن لم نلم بجذورها ، لا بل إننا لن نفهم حقيقة ذلك الزلزال السياسى الذى أطاح بـ « النظام القديم » دون أن نفحص كل جهاز من أجهزة الاقتصاد الفرنسى ، كل بدوره ولو فى إيجاز ، ونرى كيف عاونت حالته على مجىء هذه القارعة الكبرى .

وعلينا ونحن نعود مرة أخرى إلى تناول الزراعة والصناعة والمالية أن نتذكر أنها ليست لوحات تجريدية قابضة للصدر بل كائنات بشرية حية حساسة . نبلاء وفلاحون ينظمون إنتاج الطعام ؛ ومديرون وعمال يصنعون السلع ؛ ومخترعون وعلماء يصوغون طرائق وأدوات جديدة ؛ ومدن تشغى بالمتاجر والمصانع ، وربات بيوت مهمومات وجماهير رعاع متمرده ؛ وثغور ومراكب تزخر بالتجار ، والملاحين ، والبحارة ، والرجال المغامرين ؛ ومصرفيون يغامرون بالمال ويكسبونه ويخسرونه مثل نكير ، وبالحياة مثل لافوازييه ؛ ثم تدفق الأفكار والسخط الثوريين وضغطهما خلال هذا الكل الهائج المضطرب ، أنها لصورة معقدة رهيبة .

١ — النبلاء والثورة

كان عدد الفرنسيين ٢٤,٦٧٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وهكذا قدر نكير عدد السكان فى ١٧٨٤[1] . فقد تصاعد عددهم من ١٧,٠٠٠,٠٠٠

فى ١٧١٥ بفضل زيادة إنتاج الطعام وتحسن وسائل حفظ الصحة وانعدام الغزو الأجنبى والحرب الأهلية ، وحظيت الأمة فى مجموعها بازدياد الرخاء خلال القرن الثامن عشر ، ولكن أكثر الثراء الطارىء انحصر فى الطبقة الوسطى (٢) .

وكان كل الفرنسيين ريفيين فيما عدا مليونين من الأنفس ، والحياة الزراعية يديرها النظار الملكيون ، والمديرون الاقليميون ، وكهنة الأبرشيات ، والسادة — أى أمراء الإقطاع — الذين قدر عددهم فى ١٧٨٩ بنحو ٢٦,٠٠٠ . هؤلاء وأبناؤهم خدموا وطنهم فى الحرب بأسلوبهم الأنيق العتيق (وقد أصبحت السيوف الآن حلية أكثر منها سلاحاً) . ولم تبق إلا قلة من النبلاء فى البلاط ، أما السواد الأعظم فعاشوا فى ضياعهم . وزعموا أنهم يكسبون دخولهم بتوفير الإدارة الزراعية ، والرقابة البوليسية ، والمحاكم ، والمدارس ، والمستشفيات ، والإحسانات . على أن معظم هذه المهام كانت قد تلقاها عمال للحكومة المركزية ، وكان الملاك من الفلاحين يطورون نظمهم الهادفة إلى الإدارة المحلية ، وهكذا باتت طبقة النبلاء عضواً أثرياً ، يأخذ الدم الكثير من الكائن الاجتماعى ، ولا يعطيه لقاء ذلك إلا القليل بخلاف الخدمة العسكرية . وحتى هذه الخدمة أثارت شكوى عامة ، لأن النبلاء أقنعوا لويس السادس عشر (١٧٨١) بأن يحرم من جميع المناصب الكبرى فى الجيش والبحرية والحكومة كل من لا يظاهره أربعة أجيال من الأستقراطية .

ثم رمى النبلاء فوق هذا بأنهم تركوا مساحات شاسعة من ضياعهم بورا فى الوقت الذى يجوع فيه للخبز الآلاف من سكان المدن . ويصدق على الكثير من بقاع فرنسا هذا الوصف الذى كتبه آرثر يونج الذى كتبه آرثر ينج عن قطاعى اللوار ونهر شير : « ان الحقول مسرح للإدارة المهملة ، كما أن البيوت شاهد على الفقر المدقع . ومع ذلك فإن هذه البلاد كلها قابلة جداً للتحسين لو عرفوا ما ينبغى أن يصنعوه بها »(٣) * وكان عدد غير قليل من النبلاء فقراء ،

(*) قام آرثر يونج ، أحد وجوه المزارعين الانجليز ، برحلات فى القارة فى ١٧٨٧ و ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وروى مشاهداته فى « رحلات فى فرلسا » (١٧٩٢) وفى آرائه بعض التحيزات الانجليزية (« خذ جماع الجنس البشرى ، تجد فى انجلتره فى نصف ساعة قدرا من حسن الادراك أكثر مما تجده فى فرنسا فى نصف سنة (٤) .) ولكن يبدو انه قدم لنا وصفا منصفا موثوقا به لما رأى . وسنراه يذكر الثراء كما يذكر الفقر . وأهم مآخذه على فرنسا تتركز فى تخلفها التكنولوجى ، وحكومتها المسرفة فى اللركزية ، والقهر ، والاوتقراطية .

بعضهم لنقص كفايتهم ، وبعضهم اسوء طالعهم ، وبعض لإرهاق أرضهم . وقد التمس كثير من هؤلاء المعونة من الملك ، وتلقى العديد منهم منحا من خزانة الدولة .

أما القنية بمعنى ارتباط الشخص قانوناً بقطعة من الأرض وخضوعه بصفة دائمة لمالكها فى أداء الرسم والخدمات ، فكانت قد اختفت من فرنسا إلى حد كبير فى ١٧٨٩ ، وبقى نحو مليون من الأقنان أكثرهم على الأملاك الديرية . فلما حرر لويس السادس عشر الأقنان العاملين على الأراضى الملكية (١٧٧٩) ، سوف برلمان فرانسن — كونتيه (فى شرقى فرنسا) تسعة أشهر حتى سجل مرسومه . ورفض الاقتداء بالملك كنيسة لوكسوى ودير فونتين ، ومجموع ما لديهما أحد عشر ألف قن ، ودير سان — كلود فى مديرية الجورا الحالية ، وكان لديه عشرون ألف قن ، وذلك رغم عدة نداءات انضم فيها إلى فولتير عدد من الكنيسيين[٥] . على أن هؤلاء الأقنان اشتروا حريتهم شيئاً فشيئاً ، أو نالوها بالهروب ثم ألغى لويس السادس عشر فى ١٧٧٩ حق المالك فى مطاردة الأقنان الآبقين خارج أملاكه .

ومع أن ٩٥٪ من الفلاحين كانوا أحراراً فى ١٧٨٩ ، إلا أن السواد الأعظم منهم ظلوا خاضعين لحق أو أكثر من الحقوق الإقطاعية التى تختلف فى الدرجة من اقليم لآخر . وكانت تشمل إيجاراً سنوياً (ضوعف فى القرن الثامن عشر) ، ورسماً نظير حق التوريث ، وأجراً عن استعمال مطحن السيد وأفرانه ومعاصره وبرك سمكه — التى كانت كلها حكراً له . وقد احتفظ بحق مطاردة طرائده حتى داخل محاصيل الفلاح ، وسيج مساحات متزايدة من الأرض المشاع التى كان الفلاح يحتطب منها ويطلق فيها ماشيته لترعى . أما السخرة فقد خففت فى معظم أرجاء فرنسا إلى ضريبة تدفع نقداً ، ولكن ظل الفلاح فى أوفرن ، وشمبانيا ، وأرتزا ، واللورين ، مطالباً بأن يبذل للإقطاعى المحلى كل سنة ثلاثة أيام أو أربعة من العمل الذى لايتقاضى عنه أجرا ، وذلك لصيانة الطرق البرية والجسور والطرق المائية[٦] . ويمكن القول أن الحقوق الإقطاعية الباقية اقتطعت فى جملتها ومتوسطها

عشرة فى المائة من إنتاج الفلاح أو دخله ، ثم اقتطعت ضريبة العشور الكنيسية نسبة أخرى تتفاوت بين ثمانية وعشرة فى المائة . فإذا أضيف إلى هذا الضرائب المدفوعة للدولة ، وضرائب السوق والبيوع ، والرسوم المدفوعة لكاهن الأبرشية نظير مراسم العماد والزواج والدفن ، لم يبق للفلاح إلا نحو نصف ثمرات كده .

ولما كانت قيمة المبالغ النقدية التى يتسلمها السادة الإقطاعيون تتناقص بهبوط قيمة العملة ، فقد حاولوا حماية دخلهم بزيادة الرسوم ، وإحياء رسوم عفى عليها الدهر ، وتسييج المزيد من الأرض المشاع . وكانت جباية الرسوم تعهد عادة إلى ملتزمين محترفين كثيراً مالا يعرفون الرحمة فى أداء عملهم . فإذا تشكك الفلاح فى حق السيد فى رسوم معينة قيل له أنها مدرجة فى قوائم الضياع أو سجلاتها . فإذا تحدى صحة هذه القوائم رفع الأمر إلى المحكمة الإقطاعية أو إلى البرلمان الإقليمى الذى كان سادة الإقطاع يهيمنون عليهم(٧) .

وحين نشر بونسير ، بتشجيع طورجو سرا ، (١٧٧٦) كراسة عنوانها « مساوىء الحقوق الإقطاعية » أوصى فيها باختزال هذه الحقوق ، لامه برلمان باريس . وانبرى فولتير لخوض المعركة من جديد وقد بلغ الثانية والثمانين ، فكتب يقول : إن اقتراح إلغاء الحقوق الإقطاعية يعدل مهاجمة أملاك السادة أعضاء البرلمان أنفسهم ، الذين يمتلك معظمهم إقطاعات . . . أنها قضية الكنيسة ، والنبلاء ، وأعضاء البرلمان . . . متضافرين ضد العدو المشترى — أى الشعب »(٨) .

على أن هناك ما أمكن أن يقال دفاعاً عن الحقوق الإقطاعية فهى من وجهة نظر النبيل رهن عقارى قبله الفلاح بمحض حريته كجزء من الثمن الذى اشترى به قطعة أرض من مالكها الشرعى — الذى كان فى كثير من الحالات قد اشتراها بحسن نية مالكها السابق . وكان بعض النبلاء الفقراء يعتمدون فى قوتهم على هذه الرسوم . وكان الفلاح يعانى من شر الضرائب ، والعشور ، ومطالب الحرب وغاراتها أكثر كثيراً مما يعانى من الرسوم الإقطاعية . استمع إلى أعظم وأشرف الاشتراكيين الفرنسيين وهو جان —

جوريه يقول « لو لم يكن فى المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر مساوىء غير تلك البقايا التافهة لذلك النظام (الإقطاعى) ، لما دعت الحاجة لثورة تشفى هذا الجرح المتقرح ، ولكان اختزال الحقوق الإقطاعية تدريجياً وتحرير الفلاحين كفيلا بإحداث التغيير بطريقة سامية [٩] .

وكان أبرز ملامح طبقة النبلاء الفرنسيين اعترافها بالذنب ، إذ لم يقتصر الأمر على انضمام الكثير من النبلاء إلى جماعة الفلاسفة فى رفض اللاهوت القديم ، بل ان بعضهم كما رأينا سخر من امتيازات طبقتهم التى عفى عليها الزمن[١٠] . وقبل الثورة بسنة عرض ثلاثون نبيلا أن يتنازلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية المالية[١١] . وكانا يعرف مثالية الشاب لافاييت الذى لم يكتف بالقتال دفاعاً عن أمريكا بل حال عودته إلى فرنسا خاض بقوة ذلك الكفاح فى سبيل الإصلاح السلمى . وقد ندد بالرق ، ورصد جانباً من ثروته ليعتق العبيد فى جيانا الفرنسية[١٢] . وفشا الجهر بالمبادىء اللبرالية ، والدفاع عن الإصلاح ، فى شطر من الأرستقراطيين لاسيما حاملات الألقاب مثل النبيلات لا مارك ، ودبوفليه ، ودبوين ، ودلكسمبور . ولعب مئات من الأشراف والأساقفة دوراً نشيطاً فى الحملات التى شنت لتحقيق المساواة فى الضرائب ، والحد من الإسراف الحكومى ، وتنظيم أعمال البر ، وإنهاء السخرة[١٣] . وبذل بعض الأشراف ، كدوقة بوربون ، معظم ثروتهم للفقراء[١٤] .

على أن هذا كله لم يكن إلا حيلة لطيفة فوق الواقع الواضح للعيان ، وهو أن طبقة النبلاء الفرنسيين لم تعد تستأهل قوتها . صحيح أن كثيرين منهم حاولوا الاضطلاع بمسئولياتهم التقليدية ، غير أن المفارقة بين التبطل المترف الذى يرتع فيه الإقطاعيون الأثرياء وبين شظف العيش الذى تعانيه جماهير أشرفت غير مرة على المجاعة ، أثارت العداء والاحتقار . وقبل ذلك بزمن مديد أصدر رجل ، كان هو نفسه نبيلا عظيماً ، حكم الإعدام على طبقته ، فلنستمع إلى رينيه — لوى دفوايه ، مركيز دارجنسون ، وزير الدولة (١٧٤٤ — ٤٧) يكتب حوالى ١٧٥٢ :

« لابد من القضاء على سلالة السادة العظام قضاء مبرما . وأعنى بالعظام أصحاب الألقاب والأملاك والعشور والمناصب والوظائف ، الذين يتبوأون المقام الرفيع رغم أنهم بلاكفايات وأنهم ليسوا بالضرورة راشدين ، فهم لذلك عديمو القيمة فى كثير من الأحايين . . . وإنى ألاحظ أن الناس يحافظون على سلالة من كلاب الصيد الأصلية ، ولكن متى تدهورت السلالة قضوا عليها »(١٥) .

هؤلاء السادة بعينهم ، الأغنياء ، المتكبرون ، الذين لاوظيفة لهم فى الغالب ، هم الذين بدأوا الثورة . ذلك أنهم كانوا ينظرون بحسرة إلى العهد الذى سبق ريشليو ، يوم كانت طبقتهم هى السلطة الحاكمة فى فرنسا . وحين أكدت البرلمانات حقها فى إبطال المراسم الملكية ، انضم نبلاء الدم والسيف إلى نبلاء الرداء — وهم القضاه الوراثيون — فى محاولة لإخضاع الملك . وهللوا لخطباء البرلمان الذين رددوا صيحة « الحرية » وشجعوا الشعب وكتاب الكراريس على التنديد بسلطة لويس السادس عشر المطلقة . وليس فى وسعنا أن نلومهم على هذا ، غير أنهم بإضعافهم سلطة الملك مكنوا ١٧٨٩ الجمعية التشريعية التى تهيمن عليها الطبقة البورجوازية من أن تستحوذ على السيادة فى فرنسا . وهكذا دق النبلاء أول مسمار فى نعشهم .

٢ — الفلاحون والثورة

كان أكثر العمل الزراعى المؤدى على الخمسة والخمسين فى المائة من أرض فرنسا الذى يمتلكه النبلاء ورجال الدين والملك ، يؤديه محاصصون يأخذون المواشى والأدوات والبزار من الملاك ويدفعون له نصف المحصول عادة . وكان هؤلاء المحاصصون بوجه عام فقراء معدمين حتى لقد حكم آرثر ينج على هذا النظام بأنه « لعنة البلاد بأسرها وخرابها »(١٦) ، ومرد ذلك ضعف الحوافز أكثر من قسوة الملاك .

أما أغلبية الملاك الفلاحين الذين زرعوا خمسة وأربعين فى المائة من الأرض فقد قضى عليهم بالفقر صغر مساحة أراضيهم ، الأمر الذى حد

ن استعمال الآلات الزراعية استعمالا راجحاً . وتخلفت التكنولوجيا الزراعية فى فرنسا عن نظيرتها فى انجلتره . صحيح كان هناك مدارس زراعية ومزارع نموذجية ، ولكن لم يفد منها غير قلة من المزارعين . ولعل ستين فى المائة من الملاك الفلاحين كانوا يملكون أقل من الهكتارات الخمسة (نحو ثلاثة عشر فداناً) اللازمة لإعاشة الأسرة ، واضطر الرجال للعمل فعلة أجراء على المزارع الكبيرة . وقد ارتفعت أجور فعلة المزارع اثنى عشر فى المائة بين ١٧٧١ و ١٧٨٩ ، ولكن الأسعار ارتفعت فى الفترة ذاتها خمسة وستين فى المائة أو أكثر (١٧) . ومع أن الإنتاج الزراعى ارتفع خلال حكم لويس السادس عشر ، فإن الأجراء من الفلاحين ازدادوا فقراً ، وألفوا بروليتاريا ريفية كانت فى فترات العمالة الراكدة بمثابة معمل تفريخ ينتج حشوداً من المتسولين والمتشردين . وقد ذهب شامفور إلى أنه « لاجدال فى أن بفرنسا سبعة ملايين رجل يتسولون ، واثنى عشر يعجزون عن التصدق » (١٨) .

ولعل فقر الفلاحين قد بالغ الرحالة فى وصفه لأن أول ما استرعى ملاحظتهم كان الأحوال الظاهرة ؛ فهم لم يروا العملة والسلع المخبأة هرباً من عين مقدر الضريبة . وتتضارب التقديرات المعاصرة لهذه الفترة . فقد وجد آرثر ينج مناطق يعمها الفقر والتوحش والقذارة كما فى بريتانى ، ومناطق فيها الثراء والكبرياء كما فى بيارن (١٩) . ويمكن القول عموماً أن الفقر فى ريف فرنسا عام ١٧٨٩ لم يكن مدقعاً كما كان فى إرلنده ، ولا أسوأ منه فى أوربا الشرقية أو فى بعض الأحياء الفقيرة المزدحمة فى المدن « الغنية » فى وقتنا الحاضر ، ولكنه كان أسوأ منه فى انجلتره أو فى وادى بو المعطاء أبدا . وتشير أحدث الدراسات إلى أنه «كان هناك أزمة زراعية فى نهاية النظام القديم » (٢٠) . فإذا جاء القحط والمجاعة . كما حدث فى ١٧٨٨ — ٨٩ بلغت معاناة الفلاحين لاسيما فى جنوبى فرنسا مبلغاً لم ينج فيه نصف السكان من التضور جوعاً إلا بفضل الصدقات التى وزعتها الحكومة والكهنة .

وكان على الفلاح أن يدفع ما يفرض عليه أداؤه للدولة والكنيسة والنبلاء ، ووقعت ضريبة التاى — أى ضريبة الأرض — كلها تقريباً على كاهله ، وكان يقدم كل الرجال اللازمين لمشاة الجيش أو جلهم . وقد تحمل عبء

احتكار الحكومة للملح . وكان الفضل لجهده فى صيانة الطرق والجسور والقنوات . ولعله كان مؤدياً العشور برضى أكثر — فهو رجل « يخاف الله » والعشور تجبى جباية رحيمة ، ونذر أن أقتضته عشر دخله بالضبط(٢١) ، ولكنه رأى أكثرها يترك الأبرشيه ليعول أسقفا فى بلد ناء ، أو كنسياً عاطلا فى البلاط ، بل حتى علمانياً اشترى حصة فى العشور المستقبله . وقد خفف لويس السادس عشر عبء الضريبة المباشرة على الفلاح ، ولكن الضرائب غير المباشرة زيدت فى كثير من الأقاليم(٢٢) .

فهل كان فقر الفلاح سبب الثورة ؟ لقد كان فقره عاملا دراميآ فى مركب من أسباب عدة . كان أفقر الفقراء أعجز من أن يثوروا ؛ فى استطاعتهم أن يرفعوا أصواتهم طلباً للغوث ، ولكنهم لا يملكون الوسيلة ولا الهمة لتنظيم الثورة ، إلى أن استنفرهم المزارعون الأكثر ثراء وعملاء الطبقة الوسطى ، وانتفاضات رعاع باريس . على أنه حين وهنت قوى الدولة نتيجة تطور الشعب الفكرى ، وحين سرت عدوى الأفكار الراديكالية إلى الجيش سرياناً خطراً ، وحين لم تعد السلطات المحلية قادرة على الاعتماد على التأييد الحربى يأتيها من فرساى — عندها أصبح الفلاحون قوة ثورية ، فتجمعوا ، وتبادلوا الشكاوى والعهود ، وتسلحوا ، وهاجموا القصور الريفية ، وأحرقوا بيوت الإقطاعيين المتغطرسين ، ودمروا السجلات الإقطاعية التى استشهدوا بها على صحة الحقوق الإقطاعية ، هذا العمل المباشر ، الذى هدد بتدمير شامل لأملاك الإقطاعيين ، هو الذى روع النبلاء فنزلوا عن امتيازاتهم الإقطاعية (٤ أغسطس ١٧٨٩) . ووضعوا بذلك نهاية شرعية للنظام القديم .

٣ — الصناعة والثورة

فى موضوع الصناعة على الأخص تغيم الصورة السابقة للثورة وتتعقد(١) . فالصناعة البيتية — صناعة الرجال والنساء والأبناء فى البيت — كانت تخدم التجار الذين يوفرون المادة ويشترون الناتج(٢) ، والطوائف الحرفية — المعلمون ، وعمال اليومية ، والصبية — كانت تنتج السلع اليدوية لتلبية الاحتياجات المحلية بنوع خاص . وقد عمرت هذه الطوائف حتى الثورة ، ولكن فى

١٧٨٩ كان قد أوهنها غاية الوهن نمو(٣) المشروعات الحرة الرأسمالية — وهى شركات كان لها أن تجمع رأس المال من أى مصدر ، وأن تستأجر أى إنسان . وأن تبتكر وتطبق أساليب جديدة فى الإنتاج والتوزيع ، وأن تتنافس مع أى إنسان ، وأن تبيع فى أى مكان . وكانت هذه المؤسسات عادة صغيرة ولكنها أخذت تتكاثر ، فكان فى مرسليا وحدها عام ١٧٨٩ ثمانية وثلاثون مصنعاً للصابون ، وثمانية وأربعون للقبعات ، وثمانية للزجاج ، واثنا عشر لتكرير السكر وعشر مدابغ(٢٣) . أما فى المنسوجات ، والبناء ، والتعدين ، وتصنيع المعادن ، فقد اتسمت الرأسمالية وغدت مشروعات واسعة النطاق ، وكان هذا عادة بفضل شركات المحاصة .

وكانت فرنسا بطيئة فى الأخذ بآلات النسيج التى كانت آنئذ تفتتح الثورة الصناعية فى انجلتره ، ولكن مصانع نسيج كبيرة كانت تدور دواليبها فى آبفيل ، وأميان ، ورامس ، وباريس ، ولوفييه ، وأورليان ، وازدهرت صناعة الحرير فى ليون . وكانت صناعات المعمار تقيم تلك العمائر الضخمة ذات الشقق ، التى مازالت تضفى على المدن الفرنسية ملامحها المميزة . وكانت صناعة السفن تشغل آلاف العمال فى نانت ، وبوردو ، وما رسليا ، أما التعدين فكان أكثر الصناعات الفرنسية تقدماً . وقد احتفظت الدولة بجميع الحقوق فى التربة السفلية ، وأجرت المناجم لأصحاب الامتياز ، وفرضت قانون أمن للمعدنين(٢٤) ، وحفرت الشركات مداخل للمناجم وصل عمقها إلى ثلاثمائة قدم ، وركبت أجهزة غالية للتهوية ، والصرف ، والنقل ، وخلقت أصحاب ملايين . وكان لشركة انزان (١٧٩٠) أربعة آلاف عامل ، وستمائة حصان ، واثنتا عشرة آلة بخارية ، وكانت تستخرج ٣١٠,٠٠٠ طن من الفحم فى العام . وقد وفر استخراج الحديد وغيره من المعادن المادة لصناعة معدنية متسعة . وفى ١٧٨٧ جمعت شركة كروزر المساهمة رأسمال قدره عشرة ملايين جنيه لاستخدام أحدث الآلات فى إنتاج المصنوعات الحديدية ، وكانت الآلات البخارية تشغل المنافيخ ، والمطارق ، والمثاقب ، ومكنت السكك الحديدية الجواد الواحد من أن يجر ما كان يحتاج جره من قبل إلى خمسة جياد .

وقد ابتكر الفرنسيون بعض الاختراعات المذهلة فى هذه السنين . ففى ١٧٧٦ رفه المركيز جوفروا عن الجماهير المحتشدة على نهر دوب بمنظر قارب تحركه آلة بخارية ، وذلك قبل أن يبحر زورق فولتن « كليرمونت » التجارية فى نهر هدسن ذهاباً وإياباً . بل أدهش من هذا كانت الخطوات الأولى فى غزو الفضاء . ففى ١٧٦٦ أثبت هنرى كافندش أن للهيدروجين كثافة أقل من الهواء ، واستنتج جوزف بلاك أن كيساً يملأ بالهيدروجين يستطيع الصعود فى الجو . وعكف جوزف وإتيين مونجولفييه على تجاربهما على هدى المبدأ القائل بأن الهواء تقل كثافته إذا سخن ؛ وفى ٥ يونيو ١٧٨٣ ، فى انونيه قرب ليون ، ملأ بالوناً بالهواء المسخن ، فارتفع إلى علو ألف وستمائة قدم ، ثم هبط بعد عشر دقائق حين برد هواؤه . وصعد بالون مملوء بالهيدروجين صممه جاك — الكسندر شارل من باريس فى ٢٧ أغسطس ١٧٨٣ على مشهد من ٣٠٠,٠٠٠ متفرج يهتفون له ، فلما هبط على بعد خمسة عشر ميلا مزقه حشد من القرويين إرباً زاعمين أنه عدو مغير من الجو (٢٥) . وفى ١٥ أكتوبر قام جان — فرنسوا بيلاتر دروزييه بأول طيران مدون للإنسان ، مستخدماً بالوناً كبالون مونجولفييه به هواء مسخن ، واستمر صعوده أربع دقائق . وفى ٧ يناير ١٧٨٥ طار الفرنسى فرنسوا بلا نشار ، والفزيائى الأمريكى جون جفريز ، فى بالون من انجلتره إلى فرنسا . وبدأ الناس يتحدثون عن الطيران إلى أمريكا (٢٦) .

وزكت مدن فرنسا خلال هذا العهد الحاسم بعد أن غذتها الصناعة والتجارة . فكانت ليون تشغى بالحوانيت والمصانع والمشروعات . وذهل آرثر ينج لفخامة بوردو . وأصبحت باريس الآن مركزاً تجارياً أكثر منه سياسياً ، فكانت بمثابة القلب لمجمع اقتصادى يهيمن على نصف عاصمة فرنسا ، ومن ثم على نصف اقتصادها . وكان يسكنها عام ١٧٨٩ نحو ٦٠٠,٠٠٠ نسمة(٢٧) . ولم تكن وقتها مدينة ذات جمال رائع ، وقد وصف فولتير الكثير منها بأنه جدير بالقوط والفندال(٢٨) . وقال بريستلى الذى زارها فى ١٧٧٤ : « لا أستطيع الزعم بأنه قد راعنى شىء منها غير اتساع

العمائر العامة وبهائها ، وفى مقابل هذا ساءنى كثيراً ضيق أكثر الشوارع وقذارتها ونتنها »[٢٩] . ومثل هذا الوصف كتبه ينج :

« ان تسعة أعشار الشوارع قذر ، وكلها خلو من أرصفة المشاه . والمشى — الذى تجده فى لندن غاية فى الإمتاع والنظافة بحيث تمارسه السيدات يومياً — هو هنا كد وعناء للرجل ، وضرب من المحال على المرأة الأنيقة الثياب . . وعربات الركوب كثيرة ، وأسوأ من ذلك كثيراً ذلك العدد الهائل من « الكبريلات » التى يجرها حصان واحد ويسوقها الفتيان العصريون ومقلدوهم . بسرعة فائقة . . . تجعل الشوارع بالغة الخطر . . . وقد لطخنى أنا نفسى رشاش الوحل غير مرة »[٣٠] .

وأخذت طبقة من العمال الكادحين « بروليتاريا » تتشكل فى المدن كبيرها وصغيرها ، رجال ونساء ، وأطفال يعملون لقاء أجر بأدوات ومواد ليست ملكاً لهم . ولا يتوافر لدينا إحصاء عنهم ، ولكن قدر عددهم فى باريس عام ١٧٨٩ بـ ٧٥,٠٠٠ أسرة ، أو ٣٠٠,٠٠٠ فرد[٣١] . وكان هناك أعداد كبيرة بهذه النسبة فى آبفيل ، وليون ، ومرسليا . وكانت ساعات العمل طويلة والأجور ضئيلة ، لأن حكماً أصدره برلمان باريس (١٢ نوفمبر ١٧٧٨) حظر على العمال تنظيم أنفسهم . وقد ارتفعت الأجور ما بين عامى ١٧٤١ و ١٧٨٩ اثنين وعشرين فى المائة ، وارتفعت الأسعار خمسة وستين فى المائة[٣٢] ، ويبدو أن حال العمال تدهور فى عهد لويس السادس عشر[٣٣] . فلما قل الطلب ، أو اشتدت المنافسة الأجنبية (كما حدث فى ١٧٨٦) ، طردت أعداد كبيرة من العمال فأصبحوا كلا على البر والإحسان . وكادت آلاف الأسر تموت جوعاً عندما ارتفع ثمن الخبز ، الذى كان قوام نصف طعام الجماهير الباريسية[٣٤] . وكان ثلاثون ألف شخص يتلقون الإغاثة العامة فى ليون عام ١٧٨٧ ، واشتد فقر ثلثى سكان رامس فى ١٧٨٨ عقب أحد الفيضانات ، وفى باريس عام ١٧٩١ قيدت مائة ألف أسرة على أنها معوزة[٣٥] . وكتب مرسييه حوالى ١٧٨٥ يقول « ان عامة الشعب فى باريس ضعاف الأبدان صفر الوجوه صغار الأجسام معوقو النمو وكأنهم طبقة تفردت عن سائر الطبقات فى الدولة »[٣٦] .

وألف العمال الاتحادات وأضربوا فى تحد لأوامر الحظر ففى ١٧٧٤ توقفوا عن العمل لارتفاع تكاليف المعيشة بأسرع من الأجور ، ولأن قوانين العرض والطلب غير المنظمة تهوى بالعمال إلى درك الكفاف لا أكثر . أما أرباب العمل الذين امتلأت مخازنهم بالطعام فقد انتظروا أن يكره الجوع العمال على طلب الصلح . ودفع الإحباط الكثير من العمال إلى الرحيل عن ليون قاصدين مدناً أخرى ، بل مهاجرين إلى سويسرة أو إيطاليا ، ولكنهم أوقفوا على الحدود وأعيدوا إلى مواطنهم قسرا . وثار العمال ، واستولوا على مكاتب البلدية ، وأقاموا دكتاتورية قصيرة الأجل من البروليتاريا على للكومون . فاستدعت الحكومة الجيش الذى أخمد التمرد ، ثم شنق اثنان من زعماء العمال ، وعاد المضربون إلى ورشهم مقهورين ، يشعرون بالعداء نحو الحكومة وأرباب العمل على السواء (٣٧) .

وفى ١٧٨٦ عادوا إلى الإضراب ، مؤكدين أنهم عاجزون عن إعالة أسرهم حتى بمواصلة العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، شاكين من أنهم يعاملون « بأقسى مما تعامل به الحيوانات المنزلية ، فحتى هذه تعطى من الطعام ما يكفى لحفظها سليمة قوية »(٣٨) . ووافقت سلطات المدينة على منحهم علاوة ، ولكنها حظرت أى اجتماع يضم أكثر من أربعة أشخاص . واضطلعت كتيبة مدفعية بتنفيذ هذا الحظر ، وأطلق الجند الرصاص على المضربين فقتلوا عدة أشخاص ، وعاد المضربون إلى العمل وسحبت العلاوة منهم بعد ذلك (٣٩) .

وقد نشبت حوادث الشغب احتجاجاً على ارتفاع تكاليف المعيشة ، متفرقة طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فوقعت منها ستة فى نورمنديه بين عامى ١٧٥٢ ، و ١٧٦٨ ؛ وفى ١٧٦٨ سيطر القائمون بالشغب على روان ، ونهبوا مخازن الغلال الحكومية ، وسلبوا المتاجر ، ووقعت أحداث مماثلة فى رامس عام ١٧٧٠ ، وفى بواتيه عام ١٧٧٢ ، وفى ديجون وفرساى وباريس ويونتواز عام ١٧٧٥ ، وفى اكس — ان — برو فانس عام ١٧٨٥ ، ثم فى باريس عامى ١٧٨٨ ، ١٧٨٩ (٤٠) .

فأى دور إذن لعبه فقر البروليتاريا ، أو فقر المدن عموماً ، فى إحداث الثورة ؟ لقد كان فى ظاهر الأمر سبباً مباشراً ، فالعجز فى الخبز وما ترتب عليه من شغب فى باريس فى ١٧٨٨ — ٨٩ رفع حمى الشعب إلى درجة كان فيها أفراده على استعداد للمغامرة بحياتهم فى تحدى الجيش والهجوم على الباستيل . على أن الجوع والغضب يستطيعان إعطاء القوة المحركة ، ولكنهما لا يعطيان القيادة ، ومن المحتمل أن حوادث الشغب كان يمكن تهدئتها بخفض سعر الخبز لو لم توجه القيادة من الطبقات الأعلى المتمردين للاستيلاء على الباستيل والزحف على فرساى . ثم ان الجماهير لم يكن لديها إلى ذلك الحين أى فكرة عن قلب الحكومة ، أو خلع الملك ، أو إقامة جمهورية . وكانت طبقة البروليتاريا تتحدث عن المساواة الطبيعية حديثاً يملؤه الأمل ، ولكنها لم تحلم بالاستيلاء على الدولة . لقد طالبت بتنظيم الدولة للاقتصاد — بينما عارضته البورجوازية — أو على الأقل بتحديد سعر الخبز ، ولكن هذا كان عودة للنظام القديم ، لا تقدماً نحو اقتصاد تهيمن عليه الطبقة العاملة . صحيح . أنه حين جد الجد كان رعاع باريس المدفوعون بالجوع والمحرضون من الخطباء والعملاء هم الذين استولوا على الباستيل ومنعوا بذلك الملك من استخدام الجيش ضد الجمعية الوطنية ، ولكن حين أعادت الجمعية تنظيم فرنسا كان ذلك بإرشاد البورجوازيين وتحقيقاً لأهدافهم .

٤ — البورجوازية والثورة

كان الملمح البارز للحياة الاقتصادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر هو صعود طبقة التجار ورجال الأعمال . وكانت قد بدأت تزكو أيام لويس الرابع عشر وكولبير ، وأفادت أعظم فائدة من الطرق والقنوات الممتازة التى يسرت التجارة ، وأثرت على الاتجار مع المستعمرات ، وارتفعت إلى مكان مرموق فى الوظائف الإدارية (حتى ١٧٨١) ، وهيمنت على مالية الدولة .

ولكن ازعجتها إلى حد التمرد تلك المكوس التى فرضت لصالح

الإقطاعيين أو الحكومة على الطرق والترع ، وذلك الفحص المضيع للوقت للشحنات عند كل محطة للمكوس وكان هناك ثلاثون إلى أربعين من هذه المكوس يجب أن يدفعها المركب الذى يحمل بضاعة من جنوبى فرنسا إلى باريس[٤١]. وطالب رجال الأعمال بحرية التجارة داخل الحدود، ولكنهم لم يكونوا واثقين من رغبتهم فى هذه الحرية بين الأمم . وفى ١٧٨٦ . وبدافع من نظريات الفزيوقراطيين ، خفضت الحكومة التعريفات على المنسوجات والبضائع الحديدية الواردة من انجلتره ، مقابل خفض التعريفات الانجليزية على الخمور والزجاج والحاصلات الفرنسية الأخرى . وكان من نتائج هذا إصابة صناعة النسيج الفرنسية بضربة ، لأنها لم تستطع منافسة المصانع الانجليزية المجهزة بآلات أحدث . وبلغت البطالة فى ليون ، وأميان ، نقطة التفجر .

ومع ذلك دعم خفض التعريفات التجارة الخارجية وملأ خزائن طبقة التجار . وتضاعفت التجارة تقريباً بين عامى ١٧٦٣ و ١٧٨٧ ، ونيفت على بليون فرنك فى ١٧٨٠[٤٢] . واكتظت مدن الثغور الفرنسية بالتجار ، والشاحنين ، والملاحين ، والمتاجر ، ومعامل التكرير ، ومصانع التقطير . فى تلك المدن كانت طبقة التجار ورجال الأعمال هى الغالبة قبل أن تكرس الثورة تفوقها القومى بزمان .

وجاء شطر من الثروة التجارية من قنص العبيد الأفارقة أو شرائهم ونقلهم إلى أمريكا وبيعهم هناك ليعملوا على المزارع الكبيرة ، وهى ما كانت عليه الحال فى انجلتره . ففى ١٧٨٨ شحن تجار الرقيق الفرنسيون ٢٩,٥٠٦ زنجياً إلى سان — دومنج (هايتى) وحدها »[٤٣] . وكان المستثمرون الفرنسيون يمتلكون معظم الأرض والصناعات هناك وفى جواد لوب والمارتنيك . وفى سان — دومنج كان ثلاثون ألفاً من البيض يستخدمون ٤٨٠,٠٠٠ عبد[٤٤] . وتألفت فى باريس « جمعية أصدقاء السود » عام ١٧٨٨ برآسة كوندورسيه ، وكانت تضم بين أعضائها لافاييت وميرابو الابن ، وتستهدف إلغاء الرق ، غير أن الشاحنين أصحاب المزارع أغرقوا الحركة باحتجاجاتهم . وفى ١٧٨٩ صرحت غرفة بوردو التجارية بالآتى : « أن فرنسا تحتاج إلى مستعمراتها

لصيانة تجارتها ، ومن ثم تحتاج إلى عبيد حتى تصبح التجارة مجزية فى هذا الجزء من العالم ، على الأقل إلى أن يعثر على وسيلة أخرى»(٤٥) .

واحتاجت المشروعات الصناعية والاستعمارية وغيرها إلى رأس المال ، وولدت سلالة متكاثرة من المصرفيين ، وعرضت شركات المحاصة السندات ، وطرحت الحكومة أسهم القروض ، وتطورت المضاربة فى بيع وشراء السندات المالية ، واستأجر المضاربون صحفيين لبث الشائعات المقصود بها رفع أسعار الأسهم أو خفضها(٤٦) . وشارك أعضاء الوزارات فى المضاربة ، فأصبحوا خاضعين لضغط المصرفيين أو نفوذهم . وكانت كل حرب تزيد من اعتماد الدولة على الماليين ، وتزيد من اهتمام الماليين اهتماماً جدياً بسياسة الدولة وقدرتها على الوفاء بديونها . وحظى بعض المصرفيين بثقة شخصية تفوق الثقة فى الحكومة ، ومن ثم استطاعوا أن يقترضوا بفائدة منخفضة ، ويقوضوا الحكومة بفائدة أعلى ، ويزيدوا ثروتهم بإمساك دفاترهم لا أكثر — مادام حكمهم صائباً وما دامت الدولة تدفع ديونها .

وتعاظم ثراء الملتزمين العامين (وهم الماليون الذين كانوا يشترون حق جباية الضرائب غير المباشرة بتقديمهم قرضاً للحكومة) واشتد كره الناس لهم ، وذلك لأن الضرائب غير المباشرة ، كضرائب البيوع عموماً ، كانت أفدح ما تكون على من يضطرون لإنفاق الكثير من دخلهم على ضروريات الحياة اليومية . وكان بعض هؤلاء الملتزمين مثل هلفتيوس ولافوازييه ، رجالا ذوى نزاهة نسبية وروح وطنية ، أسخياء فى مساهمتهم فى البر والآداب والفنون (٤٧) . وتبينت الحكومة مساوىء نظام الالتزام هذا ، وخفضت عدد الملتزمين من ستين إلى أربعين فى ١٧٨٠ ، ولكن عداء الشعب لهم استمر . وقد ألغت الثورة النظام ، وكان رأس لافوازييه أحد الرءوس التى تهاوت فى هذه العملية .

ولما كان نظام الضرائب قد لعب دوراً قيادياً بين أسباب الثورة ، فلابد لنا من أن نذكر القارىء مرة أخرى بمختلف الضرائب التى كان الفرنسيون يدفعونها . (١) كانت التاى ضريبة على الأرض والأملاك الشخصية . وقد

أعفى الأشراف منها لمـــا يؤدونه من خدمة حربية ، وأعفى الأكليروس لأنهم يحفظون النظام الاجتماعى ويصلون من أجل الدولة ، وأعفى القضاه وكبار الإداريين ، وموظفو الجامعات ، ووقع كل الضريبة تقريباً على كاهل ملاك الأرض من الطبقة الثالثة — ومن ثم على الفلاحين فى المقام الأول. (٢) ضريبة الرءوس وكانت تفرض على كل رأس فى الأسرة ، ولم يعف منها غير الأكليروس (٣) الضريبة العشرينية وكانت ضريبة على الملكية كلها عقارية أو شخصية ، ولكن النبلاء تهربوا من شطر كبير منها ومن ضريبة الرءوس باستخدام النفوذ الخاص ، أو استخدام المحامين ليعثروا على ثغرات فى القانون ، وتفادى الأكليروس الضريبة العشرينية بعطاء اختيارى دورى للدولة (٤) كانت كل مدينة تدفع ضريبـــة للحكومة وتفرضها على مواطنيها . (٥) فرضت الضرائب غير المباشرة بهذه الوسائل : (أ) مكوس النقل . (ب) مكوس الاستيراد والتصدير . (ح) رسوم الإنتاج على الأنبذة والمسكرات والصابون والجـــلد والحديد وورق اللعب الخ . (د) الاحتكارات الحكومية لبيع التبغ والملح ، فكان على كل فرد أن يشترى كل عام حداً أدنى مقرراً من الملح من الحكومة بالسعر الذى تحدده ، وكان دائماً أعلى من سعر السوق . وكانت ضريبة الملح (الجابل) هذه من أكبر أسباب شقاء الفلاح (٦) كان الفلاح يدفع ضريبة لينجو من السخرة . وبلغت جملة ما يدفعه الفرد من الطبقة الثالثة فى المتوسط من الضرائب اثنين وأربعين إلى ثلاثة وأربعين فى المائة من دخله (٤٨).

فإذا أخذنا التجار وأصحاب المصانع ورجال المال والمخترعين والمهندسين والعلماء وصغار البيروقراطيين والكتبة وأصحاب الحوانيت والكيميائيين والفنانين والكتبية والمعلمين والمؤلفين والفزيائيين والمحامين والقضاء من غير ذوى الألقاب — إذا أخذنا هؤلاء جملة باعتبارهم المؤلفين للطبقة البورجوازية ، أمكننا أن نفهم كيف أنها فى ١٧٨٩ كانت قد أصبحت أغنى وأنشط شطر من الأمة . ولعلها كانت تملك من الأرض الريفية قدر ما تملك طبقة النبلاء(٤٩) ، وكان فى استطاعتها اكتساب النبالة بمجرد شراء إقطاعة نبيلة

أو وظيفة من وظائف « السكرتيرين » الكثيرة للملك . وبينا خسرت الطبقة النبيلة النفر والمال بفعل البطالة والإسراف والتحلل البيولوجى ، وخسر الأكليروس الأرض الصلبة بصعود العلم والفلسفة ، والحياة والناموس الأبيقوريين الخضريين ، إزدادت الطبقات الوسطى ما لا وقوة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا والتجارة والمالية ، فملأت بغلاتها أو وارداتها الحوانيت (البوتيكات) التى أدهش بهاؤها الزوار الأجانب الذين ألموا بباريس أوليون أورامس أو بوردو[٥٠] . وبينما كانت الحروب تفقر الحكومة كانت تغنى الطبقة البورجوازية التى قدمت النقل والمواد . وقد انحصرت أكثر الثروة المتعاظمة فى المدن ؛ وهربت من الفلاحين والعمال وظهرت أوضح ما تكون فى التجار والماليين . فكان أربعون تاجراً فرنسياً يملكون فى ١٧٨٩ ثروة جملتها ستون مليون جنيه[٥١] ، وجمع مصرفى واحد هو بارى — مونمارتل مائه مليون[٥٢] .

أما السبب الأساسى فى الثورة فهو تلك المفارقة بين الواقع الاقتصادى والنظم السياسية ، بين أهمية الطبقة البورجوازية فى إنتاج الثروة وتملكها وبين إقصائها عن القوة السياسية . وكانت الطبقة الوسطى الراقية على وعى بقدراتها وحساسة للاستخفاف بها . وأحفظها انغلاق طبقة النبلاء الاجتماعى ووقاحتها — كما حدث لامرأة ألمعية هى مدام رولان حين دعيت للمكث حتى تتناول العشاء فى بيت أرستقراطى ، ثم وجدت الطعام يقدم لها فى جناح الخدم[٥٣] . وقد رأى البورجوازيون طبقة النبلاء تستنزف مال الدولة فى الإنفاق المسرف والولائم الباذخة فى الوقت الذى أنكر فيه المنصب أو الترقية السياسية أو الحربية على الرجال الذين وسعوا بجرأتهم وابتكارهم اقتصاد فرنسا الجالب للضرائب ، والذين تدعم مدخراتهم الخزانة الآن . ثم رأو الأكليروس يلتهمون ثلث دخل الأمة فى الإبقاء على لاهوت عده كل الفرنسيين المتعلمين تقريباً طفلياً وأثرا متخلفا من تراث العصر الوسيط .

ولم يكن بالطبقات الوسطى رغبة فى الإطاحة بالملكية ، ولكنها تطلعت إلى الهيمنة عليها . ولم يكن بها رغبة قط فى الديمقراطية ، ولكنها أرادت

حكومة دستورية ، يمكن أن يحشد فيها ذكاء جميع الطبقات للتأثير فى التشريع والإدارة والسياسة . وقد طالبت بالتحرر من هيمنة الدولة أو الطوائف النقابية على الصناعة أو التجارة ، ولكنها لم تكره الإعانات المالية الحكومية ، أو التأييد من الفلاحين وجماهير المدن لتحقيق أهدافها . وكان لب الثورة الفرنسية هو إطاحة البورجوازية بالنبلاء والأكليروس ، وهى بورجوازية استخدمت سخط الفلاحين للقضاء على الإقطاعية ، وسخط جماهير المدن لشل جيوش الملك . فلما عقد اللواء للجمعية التأسيسية بعد عامين من الثورة ، ألغت نظام الإقطاع ، وصادرت أملاك الكنيسة ، وأجازت تنظيم التجار ، ولكنها حظرت جميع تنظيمات العمال أو تجمعاتهم (١٤ يونيو ١٧٩١) [٥٤] .

٥ — احتشاد القوى

كانت هذه القوى الثورية كلها خاضعة لتأثير الأفكار ، وقد استخدمتها قناعاً للرغبات ومؤججاً لها . وكان يوجد بالإضافة إلى الدعوة التى نشرها الفلاسفة الفزيوقراطيون شيوعيون مبعثرون واصلوا ووسعوا الاشتراكية التى فصلها فى الجيل الماضى موريللى ، وما بلى ، ولنجيه[٥٦] . فسبق بريسو دفارفيل بكتابه « مباحث فلسفية حول حق الملكية » (١٧٨٠) كتاب بيير برودون «ليست الملكية إلا لصوصية» ، إذ زعم أن الملكية الخاصة إنما هى سرقة للممتلكات العامة ، فليس هناك « حق مقدس ... يبيح أكل طعام عشرين رجلا بينما يكون نصيب الرجل الواحد غير كاف « والقوانين » مؤامرة الأقوياء على الضعفاء ، والأغنياء على الفقراء » [٥٧]. وقد اعتذر بريسو فيما بعد عن كتبه الأولى باعتبارها فورات طالب ، وأصبح من زعماء الجيروند ، وأعدم بالجليوتين لاعتداله (١٧٩٣) .

وفى ١٧٨٩ قبيل الاستيلاء عنوة على الباستيل ، أصدر فرنسوا بواسيل « كتاب تعليم للنوع الإنسانى بالسؤال والجواب » ، قطع الشوط كله إلى الشيوعية ، فزعم أن كل الشرور مردها « الطبقة المرتزقة ، القاتلة للبشر ، المعادية للمجتمع ، التى ظلت إلى الآن تحكم الناس وتذلهم وتدمرهم »[٥٨] . ولقد استرق الأقوياء الضعفاء ، ووضعوا القوانين ليحكموهم . واخترعت

الملكية ، والزواج ، والدين ، لأضفاء الشرعية على الغصب ، والعنف ، والخداع ، وكانت النتيجة أن قلة قليلة هى التى تملك الأرض ، بينما تكابد الأغلبية الجوع والبرد . وما الزواج إلا ملكية خاصة فى النساء ، وليس لإنسان حق فى أكثر مما يحتاج إليه ، وكل ما زا على ذلك يجب أن يوزع على كل إنسان حسب حاجته . وعلى العاطلين الأغنياء أن يعملوا أو يجوعوا . ويجب أن تحول الأديرة إلى مدارس (٥٩) .

أما أطرف هؤلاء الرا يكاليين وأبعدهم أثراً فهم فرنسوا — اميل بابيف . فبعد أن أعان النبلاء والأكليروس فى تأكيدهم للحقوق الإقطاعية ضد الفلاحين (٦٠) ، أرسل إلى أكاديمية آراس (٢١ مارس ١٧٨٧) اقتراحاً بأن تقدم جائزة لأفضل مقال يكتب فى هذا الموضوع « إذا أخذنا فى الاعتبار مجموع المعرفة التى حصلناها الآن ، فماذا يكون حال شعب بلغت غرائزهم الاجتماعية حالة تستوجب أن تسود بينهم المساواة الكاملة . . . التى يكون فيها كل شىء مشتركاً بينهم » (٦١) . غير أن الأكا يمية لم تستجب لاقتراحه ، فبين جراكوس بابيف (كما سمى نفسه فيما بعد) فى رسالة بتاريخ ٨ يوليو ١٧٨٧ أن كل الناس متساوون بالطبيعة ، وأن كل الأشياء مشتركة فى الحالة الطبيعية ، أما كل التاريخ التالى لهذه الحالة فهو انحطاط وخداع . وقد جمع خلال الثورة أتباعاً كثيرين ، وكان على وشك تزعم تمرد على حكومة الإدارة ، ولكن عملاءها قبضوا عليه فحكم عليه بالإعدام (١٧٩٧) .

على أن آراء كهذه لم تلعب غير دور متواضع فى توليد الثورة . فلم يكن هناك أثر يذكر للميول الاشتراكية فى « كراسات المظالم » التى وردت لمجلس طبقات الأمة من جميع أرجاء فرنسا فى ١٧٨٩ ، ولم يحتو أى منها على هجمات على الملكية الخاصة أو النظام الملكى — وكانت الطبقة الوسطى تمسك بزمام الموقف .

ثم هل كان البناءون الأحرار (الماسون) عاملا فى الثورة ؟ لقد سبق ذكر صعود هذه الجمعية السرية فى انجلتره (١٧١٧) وأول ظهورها فى فرنسا (١٧٣٤) ، وقد انتشرت سريعاً فى أوربا البروتستنتية ، وأيدها

فردريك الثانى فى المانيا ، وجستاف الثالث فى السويد . وحظر البابا كلمنت الثانى عشر (١٧٣٨) على السلطات الكنسية أو العلمانية الانضمام إلى الماسون أو مساعدتهم ، ولكن برلمان باريس رفض تسجيل هذا الأمر البابوى ، فجرده بذلك من مفعوله القانونى فى فرنسا . وفى ١٧٨٩ كان هناك ٦٢٩ محفلا ماسونياً فى باريس ، كل منها يضم عادة خمسين عضواً إلى مائة [٦٢] ، وبين هؤلاء كثير من النبلاء ، وبعض الكهنة ، وأخوة لويس السادس عشر ، وأكثر زعماء حركة التنوير [٦٣] ، وفى ١٧٦٠ أسس هلفتيوس محفل العلوم ، وفى ١٧٧٠ وسعة الفلكى لالاند إلى « محفل الأخوات التسع » (ربات الفنون) . هنا التقى برتوللیه ، وفرانكلن ، وكوندورسيه ، وشامفور ، وجروز ، وأودون ، ثم سييس ، وبريسو ، وديمولان ، ودانتون [٦٤] .

وكان الماسون من الناحية النظرية يستبعدون من عضويتهم كل « فاسق كافر » وكل « ملحد غبى » [٦٥] ، وكان على كل عضو أن يعلن إيمانه بـ « مهندس الكون الأعظم » ولم تشترط فى العضو عقيدة دينية غير هذه ، وبذلك قصر الماسون بوجه عام لاهوتهم على الربوبية . ويبدو أنهم كانوا أصحاب نفوذ فى الحركة التى قامت لطرد اليسوعيين من فرنسا [٦٦] . وكان هدفهم المعلن أن ينشئوا جماعة إخوان دولية سرية يترابطون فيها بالاجتماع والطقوس ويتعهدون بتبادل العون وبالتسامح الدينى والإصلاح السياسى . وفى عهد لويس السادس عشر دخلوا ميدان السياسة بنشاط ، وأصبح عدد من الأعضاء الأرستقراطيين زعماء متحررين فى الجمعية الوطنية — لافاييت ، وميرابو الأب والإبن ، والفيكونت دنواى ، ودوق لاروشفوكو — ليانكور ، ودوق أورليان [٦٧] .

وأخيراً جاءت الأندية ذات الطابع السياسى الواضح . وقد نظمت أول الأمر على غرار الأندية الانجليزية — لتناول الطعام ، والسمر ، والقراءة — ثم أصبحت حوالى عام ١٧٨٤ مراكز للدعوة شبه الثورية . قال معاصر إنهم فى هذه الأندية « يبدون آراءهم بصوت عال ودون قيد فى حقوق الإنسان ، ومزايا الحرية ، والشرور الكبرى الناجمة عن عدم المساواة فى ظروف الحياة » [٦٨] . وبعد تجمع مجلس الطبقات كون المندوبون عن

إقليم برتنى « نادى برتن » ، ولم يلبث النادى أن وسع عضويته فشملت غير البرتنيين كميرابو الإبن ، وسييس ، وبروبسبيير ، وفى أكتوبر ١٧٨٩ نقل مقره إلى باريس ، وأصبح « جمعية اليعاقبه » .

وهكذا تضافرت عشرات القوى المتنوعة لأحداث الثورة الفرنسية ، وهو ما يحدث فى معظم الأحداث البالغة الأهمية فى التاريخ . وكان من العوامل الأساسية نمو الطبقات الوسطى عدداً وتعليماً وطموحاً وثراء وسلطاناً اقتصادياً ، ومطالبتها بوضع سياسى واجتماعى يتناسب وإسهامها فى حياة الأمة ومالية الدولة ، وحشيتها من أن تجعل الخزانة سنداتها الحكومية عديمة القيمة بإعلانها الإفلاس . ومما لحق بهذا العامل واستخدمه مساعداً ومهدداً فقر ملايين الفلاحين الذين يستصرخون طلباً للتخفف من الرسوم والضرائب والعشور ، ورخاء عدة ملايين من الفلاحين لهم من القوة ما يكفى لتحدى الإقطاعيين وجباة والضرائب والأساقفة وأفواج الجند ، والسخط المنظم الذى استشعرته جماهير المدن التى عانت من التلاعب فى إمدادات الخبز ، ومن تخلف الأجور عن الأسعار فى التصاعد التاريخى للتضخم .

أضف إلى هذا أشتاتاً متشابكة من العوامل المساعدة : إسراف البلاط المكلف ، وعجز الحكومة وفسادها ، وإضعاف الملكية نتيجة لصراعها الطويل مع البرلمانات وطبقة النبلاء ، وانعدام المؤسسات السياسية التى يمكن عن طريقها التعبير عن المظالم على نحو قانونى وبناء ، ومستويات الإدارة الرفيعة التى يتوقعها مواطنون شحذت عقولهم المدارس والكتب والصالونات والعلم والفلسفة وحركة التنوير أكثر من أى شعب من الشعوب المعاصرة . هذا فضلا عن انهيار الرقابة على المطبوعات أيام لويس السادس عشر ، وبث أفكار الإصلاح أو الأفكار الثورية على يد فولتير ، وروسو ، وديدرو ، ودالامبير ، ودولباخ وهلفتيوس ، وموريلليه ، وموريللى ، وما بلى ، ولنجيه ، وميرابوا الأب ، وطورجو ، وكوند ورسيه ، وبومارشيه ، وميرابوا الإبن ، ومئات غير هؤلاء من الكتاب الذين لم يكن لهم قط نظير من قبل عدداً والمعيه وقوة ، والذين تغلغلت دعوتهم فى كل طبقة باستثناء

طبقة الفلاحين — فى ثكنات الجيش ، وصوامع الرهبان ، وقصور الأشراف ، وحجرات الانتظار الملكية . يضاف إلى هذا كله ذلك التقلص المدمر الذى أصاب الإيمان فى صدق كنيسة كانت قد ساندت الأوضاع الراهنة وحق الملوك الإلهى ، وبشرت بفضائل الطاعة والإستسلام ، وكدست قدراً هائلا من الثروة المحسودة فى الوقت الذى لاتستطيع الحكومة أن تعثر فيه على وسيلة لتمويل واجباتها المتسعة . ثم انتشار الإيمان بـ « قانون طبيعى » يتطلب عدالة إنسانية لكل عاقل دون نظر للمولد أو اللون أو العقيدة أو الطبقة ، وبـ « حالة طبيعية » معطاءة كل الناس فيها متساوون ، فضلاء أحرار ، سقطوا منها نتيجة لنمو الملكية الخاصة ، والحرب ، والقانون الذى يوجه لخدمة الطبقة المميزة ، أضف إلى هذا ظهور وتكاثر المحامين والخطباء المستعدين للدفاع عن الوضع الراهن أو مهاجمته ، ولإثارة مشاعر الشعب وتنظيمها ، وتكاثر كتاب النشرات وضراوتهم ، والنشاط السرى للأندية السياسية ، وطموح الدوق أورليان إلى التربع على عرش فرنسا مكان ابن عمه .

ثم أجمع هذه العوامل كلها معاً فى حكم ملك لطيف خير ضعيف متردد حيره تشابك الصراعات من حوله ، والدوافع المتضاربة فى داخله ، واتركها تفعل فعلها فى شعب أشد وعياً بمظالمه ، وأحر عاطفة وأقبل للإثارة وأخصب خيالا من أى شعب آخر تقريباً وعاه التاريخ ، ثم لا يلزم لضم هذه القوى وتأجيجها لتحدث انفجاراً ممزقاً إلا حادث يمس الجماهير ، ويتغلغل تغلغلا أعمق من الفكر فى أقوى غرائز البشر . وربما كانت هذه هى وظيفة قحط عام ١٧٨٨ وشجاعته ، وشتاء ١٧٨٨ — ٨٩ القاسى . لقد تنبأ المركيز دجيراردان فى ١٧٨١ بأن « الجوع وحده سيولد هذه الثورة الكبرى[٦٩] » . وقد وصل الجوع إلى الريف ، وإلى المدن ، وإلى باريس ، وأنشب فى الجماهير أظفاره فى ضراوة تكفى للتغلب على التقاليد ، والاحترام ، والخوف ، ولتوفير معلية لتحقيق أهداف وأفكار رجال ينعمون بالغذاء الطيب . وهكذا تحطمت سدود القانون والعرف والتدين ، واندلع لهيب الثورة .